الشعر
وحي يوحى!

هذه خواطر في الأدب والشعر واللغة جاشت في قلب حضرة الأستاذ الكبير شفيق بك جبري، تمثل تطور فكرة كبار الأساتذة في الأدب، وتفسر ما يسفح على أفئدتهم من ضرورة السير بالآداب العربية شوطاً كبيراً واسع المدى نحو التقدم وتحفز بهم إلى تحطيم الأغلال وإلباس الآداب العربية ثوب الحضارة الفضفاض بحيث تستوعب هجسات الأفئدة وخواطر العقول ولا تضيق عن علم أو فن، وتسير مع المدنية جنباً إلى جنب.

وقد قرر حضرة الأستاذ جبري بك بمناسبة انتخابه استاذاً للدروس الآداب التي ستلقى ابتداء من غرة تموز على المعلمين لينالوا شهادة الأهلية والكفاءة أن يدرس الآداب بهذه الطريقة الظريفة.

فالمقتبس ينشر هذه الخواطر القيمة الممتعة التي سيتفضل بها الأستاذ بين آونة وأخرى شاكراً:

المقتبس

... إنك لتقرأ في بعض الأحايين شيئاً من الشعر، فلا يتداخلك الارتياح، ولا يستخفك الطرب، ولا تهش لهذا الشعر نفس، ولا يعلق به قلب،والعلة في ذلك واضحة، فالشاعر الذي لا تنبسط روحه على شعره إنما هو صانع غير مطبوع، يقلد تقليداً، وينسحب على الأذيال انسحاباً.

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين المطبوع والمصنوع في الشعر، وبين السمح المنقاد والصعب المستكره فتتبع نسب متيمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز كعمر وكثير وجميل ونصيب وقس شعرهم بمن جاء بعدهم وأخذ يصب على قوالبهم في النسيب في مطالع القصائد دون أن يخامره الحب،

أو يمزجه الهوى، فليس بشاعر من يشبب بالنساء و لم يدخل العشق قلبه، أومن يصف شجاعته في الحروب و لم يتمرس بآفاتها، أو من يرثي الموتى بالاستفظاع لريب الدهر، والاستهجان لشدة الأيام و لم يبلغ منه موت الفقيد مبلغاً، فالدمع الذي تذرفه الأم على موت طفلها هو غير الدمع الذي تذرفه النواحة.

كم متصد لرقة الشعر قدت طبائعه من الصخر، ونحت قلبه من الحجر، أنشأته الطبيعة على الغلظة والفظاظة وطبعته على فتور الهمة وجمود النفس؛ تطاول للشعر وبينه وبين الشعر مضروب بالأسداد، يقلب النظر في كتب المتقدمين فيزعج الألفاظ عن أماكنها، ويقلقها من مواضعها ثم يعمد إلى الصور المصورة في شعر المتقدمين فيشوه وصفها، ويقبح رصفها ثم يهجم على الناس بخواطره السمجة، فمن رزق صبر أيوب فليصبر على قراءتها، ولعمري كيف يكون شاعراً رقيقاً من هو أغلظ كبداً من الإبل.

أم كيف يكون شاعراً فخوراً من نبت في منابت السوء.

أم كيف يصور الفضائل، ويحث على الأخلاق الكريمة من اختلطت به الرذائل.

فالطبع هو العامل الأكبر في الشعر.

قال القاضي الجرجاني:

«وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبايع وتركيب الخلق فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك، وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كريه الألفاظ،

معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته، وفي جرسه ولهجته».

فالشعر صورة الإنسان ومرآة روحه فهو قطعة من قلبه، وجزء من نفسه يطفح على خاطره فيقذفه على لسانه، إن هو إلا وحي يوحى، تلهمه الطبيعة إلهاماً، لايستنبط من حفظ الألفاظ وتقليب النظر فيما يوافق منها القوافي.

فالشاعر المطبوع تنثال عليه الأفكار وتزدحم في صدره الألفاظ، فيغرف من بحر ولا ينحت من صخر.

يقول فيكتور هوغو:

«الشعر نتيجة أمرين: الروية والإلهام، فالروية قوة والإلهام منحة، كل الناس يستطيعون أن يعملوا رويتهم، ولكن القليل منهم يلهمون الهاماً، فالعقل في الروية يعمل، وفي الإلهام ينقاد، لأن الروية موجودة في الرجل نفسه، ولكن الألهام يأتيه من أفق أعلى، فالملهم هو أقوى منا، وهذان الأمران مرتطبان كل الارتباط، فالشاعر يستنزل الوحي من طريق الروية فإذا أراد أن يستثير شيطان شعره، لزمه أن ينسلخ من الوجود في الهدوء والسكون وإطالة الفكر، وأن يغيب عن ظواهر الحياة حتى يذوق لذة بواطنها، فإذا انطوى دون بصره عالم المادة برز لعينيه عالم الأفكار، فالعبقرية لا تنبثق إلا إذا كانت الروح خالصة من المشاغل العامة التي تشغل الرجل في الحياة، فالفكر لا يستطيع أن يحلق وينبسط إلا إذا ألقى أعباءه، ولذلك لا ينزل الوحي إلا بعد الروية.

إذا اعتاد المرء أن ينظر إلى نتائج الخواطر من هذا الوجه، تتغير ولا شك وجهة النقد، فمن المحقق أن الشاعر إذا استطاع أن يختار في ثمرات رويته، فإنه ليس بصاحب الأمر النافذ في طبيعته الهاماته، فالعبقرية التي أعطيها عطاء و لم يكتسبها اكتساباً تستولي عليه في الأغلب، ويصح أن يقال:

«الشاعر في نزول الوحي هو غيره من بعد نزوله».

ما أسعد الذي يشعر بسلطان الرويـة والإلهـام، أي بالعبقريـة، فمهمـا كان بلده، وسواء أولد في الخطوب والشدائد أم ولـد في الثـورات والفـتن فليستسلم إلى المستقبل، فإذا كان الحاضر للنـاس فالمسـتقبل لـه فهـو مـن جملة المخلوقات المصطفاة الـتي تـأتي في يـوم معلـوم، وسـيأتي هـذا اليـوم عاجلاً وآجلاً، فيصبح حينئذ وقد فاضت أفكاره وطفحت الهاماتـه فيـبرز للناس، وينشد قول القائل: هذا مشرقي!

أيها الشعوب مدوا أبصاركم، فالشعر على ما عرفه فيكتـور هوغـو إمام المبدعين، إلهـام مـن الطبيعـة يتـنزل علـى صاحبـه تـنزل الوحـي علـى الأنبيـاء، وكمـا كـان الأنبيـاء يعـتزلون العـالم في اسـتنزال الـوح فكذلـك الشعراء المطبوعون فإنهم يغيبون عن المادة في قرض الشعر فينـاجون عالمـاً أعلى ويحلّقون في أفق أبعد.

والبحتري نفسه عمل بوصية أبي تمام، وما وصية أبي تمام إلا كوصية هوغو فكان يتخير الأوقات وهـو قليـل الهمـوم، صفـر مـن الغمـوم، وقـد أخذت نفسه قسطها من الراحة وحظها من النوم فلا يعمل الشعر إلا وهو فارغ القلب.

وما زال هذا دأبه حتى وقف على سياسة الشعر.

فالشعر شيء قد رُكّب في الطبع، وامتزج بالنفس.

والشاعر المطبوع من إذا أنشدت له قصيدة ترقرقت روحه الصادقة في شعره، فالعبقرية شيء والجهد في التدبيج والتنميق شيء آخر [1]!

جريدة المقتبس العدد ٤٧٦٧ في ٢٧ حزيران ١٩٢٧

---

[1] وقد نقلت هذا المقال جريدة كوكب الشرق، في عددها ١ يولية ١٩٢٧ تحت قولها:

«نشرت صحيفة المقتبس الغراء التي تصدر في دمشق مقالاً قيماً للأستاذ شفيق بك جبري تحت العنوان السابق آثرنا نقله للقراء لما فيه من فائدة». كوكب الشرق.

الأسلوب

قال الصاحب بن عبّاد:

«لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده» فسئل عن السبب فقال:

«جمع شذور العربية في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة».

أراد عبد الرحمن بن عيسى أن يمهد للمتأدبين سبيلاً إلى الافصاح عن موائجهم وهوائجهم فجمع لهم ما تيسر له جمعه مما قذفت به خواطر العرب وجاشت به صدورهم من مستطرف الكلام ومستعذب الألفاظ حتى إذا همَّ أحدهم أن يعرب عن شيء يشعر به قلبه هجم على الألفاظ المجموعة فانتزع منها ما وجد فيه الدلالة على غرضه دون أن يناله شيء من التعب ولاجهد، فيكون مثله في ذلك كمثل من أراد أن يعرف ما جذاء أربعة في أربعة فيعمد إلى جدول الضرب فيقول «جذاؤها كذا... فكأن عبد الرحمن بن عيسى حاول أن يجعل الأدب من حيث لا يشعر علماً ثابت المعاقد والمناظم، ضيق الآفاق لا تفيض فيه قريحة ولا يجيش فيه طبع فكأنه أراد أن يقول لك بعد أن صنّف كتابه:

هذا هو الأدب عليك من أوله ولآخره وفاتحته وخاتمته، فإذا حفظت ألفاظه بلغت من الكتابة كل مبلغ فلم تَفتك شاردة ولا ضاعت عليك

واردة،أفلا تجد أن عبد الرحمن بن عيسى سامحه الله قد ضيق مجال الأدب من غير أن يعلم أن الأدب شيء وأن العلم شيء.

فالأدب عرضة لكل تبديل وتغيير، فمن الألفاظ ما يبلى جديدها ويذهب رونقها ومن الكلام ما تجد عتاقته ويطرف تلوده.

قال (هوراس) في فنه الشعري:

وكثير من الألفاظ تبعث من مدافنها فتنشر بعد أن طويت أحقاباً مديدة، وكثير من الكلام يموت بعد أن عاش زمناً طويلاً إذا كان في هذا الموت أو في هذه الحياة شيء يناسب الاصطلاح لأن سلطان الاصطلاح وحده هو القانون في اللغة.

انظر إلى الأدب وأيامه إنك لترى أن هذا اللفظ مثلاً كان عذباً في زمن من الأزمان استعذبته شعوب وقبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل، ثم جاء زمن استقبح الناس فيه هذا اللفظ واستهجنوه فمات فدفن في كتب اللغة كما تدفن المخلوقات الحية في ظلمات التراب. وقد ينبغ شاعر من الشعراء فيستحسن شعره أهلُ عصره ثم ينقضي ذاك العصر فتنقضي معه حسنات هذا الشاعر، فالأدب يتنقل من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، ولتطوره أسباب شتى، منطقية وفلسفية ولغوية... ولا يتهيأ في هذا المقام الكلام عن العوامل التي تقلب الأدب من عصر إلى عصر، فإذا حاولت أن تأخذ بخناق الأدب وتضرب عليه بالأسداد حتى لايستطيع إلى الجولان سبيلا نشفت القرائح وذهب الأدب وضاع... فدعه فإنه خرّاج ولاّج جوّال جوّاب، لكل رجل من رجال الأدب مذهب خاص فلكل كاتب ولكل شاعر منهج في كتابته وشعره.

وتختلف مذاهب الكتّاب والشعراء باختلاف ثقافتهم وتربيتهم وبيئتهم ومزاجهم وحسهم وتصورهم إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي

تظهر آثارها على مذاهب الشعراء والكتّاب، فلكل كاتب ولكل شاعر أسلوب خاص أي سبيل يسلكه إذا شاء أن يكتب أو أن يقول الشعر، أو طريقة يلجأ إليها إذا أفصح عن فكره أو عاطفته وتختلف الأساليب باختلاف الشعراء والكتّاب، فإذا شئت أن تحدد الأسلوب في الأدب أي إذا شئت أن تجعل للأساليب الفنية حداً لا تتجاوزه فكأنك تحاول أن تجعل لقرائح الكتاب والشعراء حداً لا تتجاوزه... فإذا كتب هؤلاء الكتاب، وإذا شعر هؤلاء الشعراء كانوا متماثلين في كتابتهم وشعرهم فإذا قرأت كتابة أحدهم فكأنك قرأت كتابتهم كلهم طالما أن الألفاظ التي يصورون بها المعاني واحدة لا تتغير مجموعة في مصنف يحفظه كل من يعالج الكتابة أو الشعر على أن المعاني ملك الخواطر بأجمعها فهي شائعة ذائعة يهجم عليها من شاء ومتى شاء ولكن السبيل إلى الإفصاح عن هذه المعاني خاص وهذا ما قاله بوفون.

الأسلوب هو الرجل نفسه ومعنى ذلك أن الأفكار هي ملك البشر بحذافيرهم وميراثهم يقتبسها من أراد، ولكن الأسلوب الذي يصور به الكاتب هذه الأفكار هو ملكه الخاص لا ينازعه فيه منازع وهنا تظهر براعة البارعين وعبقرية العبقريين، وهنا يظهر خلود الخالدين، فالأشياء تؤثر فيك في الأغلب من نواحي أساليبها أي من نواحي القوالب التي تصب فيها لأن الناس لهم أفكار واحدة بوجه التقريب ولكن التعبير أو الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب....هذا ماقاله فولتير.

إثبات ألفاظ في كتاب يحفظه رجال الأدب ويتعملونها في الإفصاح عن خواطرهم تقييد للأدب وتضييف لمجاله، فلا بأس في أن يطّلع المتأدب على ما غادره المتأدبون من فنون الكلام ومذاهبه، ولكن البأس كل البأس بأن يأخذ هذا الكلام بعينه من غير أن يتصرف فيه، فإذا أخذه بعينه ملّت البلاغات وسئمت الفصاحات وكانت الكتابات على نمط واحد ووتيرة

واحدة لا أثر للكاتب فيها... ولكن التصرف في هذا الكلام يفتح باباً إلى التوسع والاستنباط... خذ مثلاً.

كانوا يقولون «في الفرس السابق: يلحق الغزال، ويسبق الظلام».

وأمثال هذا حتى قال امرؤ القيس:

«بمنجرد قيد الأوابد هيكل»

فبنى من بعده على هذه الإشارات والاستعارات وتصرفوا فيها دون شيء من التقييد فحسنت بها أشعارهم من ذلك قول المتنبي:

يتفيأون ظلال كل مطهّم

أجل الظليم، وربقة السرحانِ

فاختزاع المتنبي لأجل الظليم وربقة السرحان بعد الاقتباس عن امرئ القيس، و قد زاد في مادة اللغة، فإذا اخترع كل شاعر شيئاً من عنده انبسط ميراثنا الأدبي وغرزت مادة لغتنا، وإذا اقتصر الأواخر على ماغادر الأوائل هلكت اللغة.

إني لا أرى شيئاً يفسد على العبقرية أمرها مثل التضييق فلو قلت «بلغ الشاعر الفلاني أو الكاتب الفلاني المبالغ فلا تجاريهما أقدام النظراء ولا تزحمهما مناكب القرناء، فلو قلت هذا وأمثاله لدخل اليأس على الخواطر فجفّت القرائح ونضب العدّ ونشف الوشل فلا تجد للاختزاع أثراً ولا ترى للاستنباط رسماً وإنما تموت القرائح ميتة لا حياة بعدها».

فدع الشاعر يقلب نظره في ميراثنا الأدبي أين شاء وكيف شاء حتى إذا تمهل في روض البيان فجنى ما تهيأ له جنيه، وقطف ما تيسر له قطفه تصرف في مجانيه ومقاطفه فطلع عليك بأسلوب طريف فزاد في ميراث لغتك وأدبك فعزّت به اللغة كما عزّت بأبنائها الطيبين الذين قلبوا الأدب

من حال إلى حال أمثال عمر بن أبـي ربيعـة وبشـار وأبـي نـواس والمتنبي والجاحظ فكانوا مفاخر العرب على وجه الدهر.

يقولون: الأسلوب هـو الرجـل نفسـه لأن في الأسـلوب صـورة طبـع الكاتب وهو يختلف باختلاف أوضاعه وعواطفـه فلكـل مؤلـف أسـلوبه، ولكل شعب أساليب خاصة، فأهل الشرق أصحاب خيال ولذلـك فـإنهم مـلأوا أسـاليبهم بالاسـتعارات وفنـون المجـاز وأهـل أثينـة شـعب مصقـول الحواشـي رقيـق الأطـراف فكـان لهـم أسـلوب صـاف واضـح، والرجـل صاحب النظر الثاقب له أسلوب موجز سريع، والرجل صاحب الخيال لـه تعابير مشحونة بالمجازات والاستعارات والرجل الذي لا نظر له لا تجد بين كلامه ولا بين تآليفه صلة ما.

فقد قال جوبر:

«لكل مؤلف من المؤلفين معجم لغوي وأسلوب فهل يميل إلى طائفـة من الألفاظ لها نغمة خاصة ولون خاص وهيئة خاصة وينزع إلى تراكيـب تلمـس فيهـا أثـر بنانـه فلـه نحـوه الخـاص ونوعـه الخـاص ولـه مسـاخره ووساوسه.

وقال صاحب كتاب «ثقافة الأفكار» المسيو دي كورمون:

«الكتابة صناعة من الصناعات ولكن الأسلوب ليس بشيء من العلم، فالأسلوب أمر خاص بصاحبه فتقول لفلان أسلوب كما تقول لفلان عين سوداء أو صوت رخيم، إنك تسـتطيع أن تتعلـم صناعـة الكتابـة ولكنـك ينبغي لك أن تستأنف هذا التلوين في كل صباح من غير شيء مـن اللهـو قد يتعلم المرء أن يكون له أسلوب، إلا أنه في خلال الحياة ينسى ما تعلمه فالرياضـة الـتي تحسـن سـائر المذاهـب تفسـد في بعـض الأحيـان موهبـة الأسلوب».

والكتابة على نحو ما يفهمها فلوبر اوغونكور إنما هي أن تكون شيئاً لا تشبه غيرك، فالحصول على أسلوب هو أن يكون لك في لغة عامة مشتركة لغة خاصة نسجت وحدها على أن تكون هذه اللهجة في الوقت ذاته لغة كل الناس ولغة واحد من الناس.

ومن كلام أميل فاكه:

«لا يكون الكاتب كبيراً إلا إذا اخترع أسلوباً يسألون مصوراً عما يريد تصويره فيقول أريد أن أصور (فنوز) لا شك في أن تصوير (فنوز) ليس فيه شيء من الإبداع لأن المصور الذي يستعد لذلك ليس بأول مصور جال في خاطره هذا الموضوع، ولكن ليس هذا الأمر بذي بال فالمهم أن يصور هذا الرجل (فنوز) تصويراً خاصاً به لا يشاركه فيه أحد وكذلك فن الكتابة فإنه قد يحتاج إلى أفكار، ولكن ليس من الضروري أن تكون الأفكار حديثة، وإنما الحاجة تمس إلى صورة حديثة لهذه الأفكار».

ومن كلامه أيضاً في بحث ضافي الحواشي عن فيكتور هوغو:

هوغو من الخالدين لأن الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأسلوب، فلنجعل هذه الكلمة خاتمة البحث فلولا الأسلوب لم يخلد خالدٌ من الكتاب والشعراء.

مجلة الكشاف ـ بيروت سنة ١٩٢٨

الناس سواسية

وإنمـــا نحـــن في جيـــل سواســـيةٌ

شرٌّ على الحر من سـقم علـى بـدن[1]

قال الدكتور غوستاف لوبون:

«لئن سَمَتْ مدارك البشر، وعظمت مقـادير عقولهـم وأحلامهـم مـن الاحقاب الغابرة، فإنك لا تجد لعواطفهم تبديلاً، فمـا اسـتحكم فيهـم في قديم الدهر مـن الحـب والحسـد والبغضـاء مجـانس لمـا اسـتحكم فيهـم في حديث الدهر».

* * *

كيف يتصور العقل أن أخلاق الرجل الذي كان يـأوي إلى الكهـوف والغيران، مشـابهة لأخـلاق الرجـل الـذي يقيـم في هـذا اليـوم بـالقصور والصـروح، أم كيـف يتمثـل الذهـن أن طبـائع البشـر الذيـن كـانوا يستصبحون بالسليط والشموع مماثلة لطبـائع الذيـن يسـتصبحون في هـذا العصر بالكهرباء، أجل كيف يخيل إلى المرء أن شيم الذيـن ألفـوا خشـونة البداوة مضارعة لشيم الذين تعودوا رقة الحضارة!

---

[1] البيت للمتنبي ومعنى سواسية متساويين في اللؤم.

أفلم يهذب العلم طبائعنا، ويقوم أخلاقنا، فإن الذي يعتقده كثير من الناس أن المرء إذا تعلق من العلم بسبب وأوفى منه على طرف، وأجال فيه قدحاً صار إلى أفق غير أفق البشر، وتغلغل في سماء لا تطاولها سماء.

إلا أننا إذا استقصينا أخلاق البشر في قديم العصور وحديثها، ونقبنا عن الرذائل التي تأصلت في نفوس الأولين، وتفرغنا للموازنة بينها وبين رذائل المتأخرين تحقق عندنا أن تباين الأوائل والأواخر في لؤم الطبائع والنحائز إنما هو يسير جداً لا يكاد يكون له أثر،وأدركنا الغاية التي يرمي إليها ابو العلاء في قوله:

ونحن في عالم صيغت أوائله

على الفساد، ففي أقوالنا فسدوا

ظهر في سنة ٣٧٢ ـ ٢٨٧ قبل السيد المسيح فيلسوف يوناني اسمه ثيوفرسطوس عرف بدماثة أخلاقه ورقة كلامه، وقد درس في مدرسة أفلاطون ثم صار إلى مدرسة أرسطو طاليس، ولما اتهم أرسطوطاليس بالغض من الآلهة، والقدح فيهم عزم على الانزعاج من أثينيه، فاستخلف على كرسي حكمته ثيوفرسطورس فتسلم ثيوفرسطوس مقاليد المدرسة، وكانت المتفلسفة تختلف إليه، وتقتبس منه، وبلغ تلاميذه ألفيْ تلميذ.

ألّف ثيوفرسطوس مائتي كتاب ونيفاً، ضاع معظمها و لم يبق منها إلا عشرون كتاباً في تاريخ النبات وأسبابه وفي الرياح والنار والأحجار والعسل والصحو والمطر والحيوان والسمك، وكتب في الطبائع والأخلاق، أما كتابه هذا فهو يدل على عقل راجح، وأسلوب خاص.

وصف ثيوفرسطوس في كتابه مفاسد الغرائز ومساوئ الشمائل والنحائت فكتب في الملق، والغلظة والارضاء، والنذالة، والشح، والوقاحة، والجبن، والنميمة والخيلاء وما شابه ذلك، وصف هذه

الأخلاق كلها، وأفاض في بيان دقائقها وأطوار أصحابها، وبين ظواهر الرجال، وأقوالهم وأفعالهم، وعرف في مبادئ الفصول ضروب الرذائل تعريفاً واضحاً موجزاً، فإذا قرأت كلامه في خلق من أخلاق رجال اثينية، فكأنك تشاهد أصحاب هذا الخلق في جهرك يروحون ويغدون، فالتملق الذي وصفه مشابه لتملق كثير من جماعاتنا، والشح الذي عرفه مجانس لشح كثير من طوائفنا.

* * *

أتى على كتاب ثيوفرسطوس ألفا سنة ونيف، فنشأ في فرنسة في القرن السابع عشر كاتب اسمه لابروير ولد في باريز، وقضى أيامه إلى جانب كونده الكبير، وكان أستاذه الخاص، فترجم لابروير كتاب ثيوفرسطوس، ووصف سلائق أهل مباءته في القرن السابع عشر، وأخلاق رجال زمانه ولا سيما رجال الملك وحاشية لويس الرابع عشر، وقد رأى لابروير أن الأخلاق التي استفاضت في اثينية من ألفي سنة، والأخلاق التي ذاعت في القرن السابع عشر في باريز متجانسة فقال:

«إن الذين وصفهم ثيوفرسطوس في كتابه إنما هم من اثينيية، ونحن رجال فرنسيون فإذ أضفنا إلى تباين الأماكن والمباآت، تعاقب الأحقاب،وعلمنا أن كتاب ثيوفرسطوس قد أتى عليه ألفا عام، عجبنا العجب كله من أن نرى في تضاعيف سطوره صور أعدائنا وأصحابنا، ونعرف الذين نعيش معهم، وتأكد لنا أن الرجال الذين يفصل بينهم تقادم العصور متشابهون في شيمهم وخيمهم كل التشابه، فإن البشر لم تتغير قلوبهم وعواطفهم، فهم في الحاضر على نحو ما كانوا عليه في الغابر زمن ثيوفرسطوس، جبلوا على الخيلاء والمداهنة والوقاحة والنميمة والأثرة وأمثال ذلك من مستهجن الأخلاق».

* * *

كتب بديع الزمان إلى الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس جواباً عن كتاب كان ورد عليه منه يذم الزمان فيه:

«والشيخ الإمام يقول فسد الزمان، فلا يقول متى كان صالحاً، أفي الدول العباسية وقد رأينا آخرها، وسمعنا أولها، أم المدة المروانية، وفي أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها، أم السنين الحربية:

والرمح يركز في الكلى

والسيف يغمد في الطلى

ومبيت حجر في الفلا

والحرتان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلي يقول: ليت العشرة منكم برأس من بني فراس، أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الاعجاز، أم الإمارات العدوية وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا النزول، أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول: طوبى لمن مات في نأنأة الإسلام أم على عهد الرسالة ويوم فتح قيل اسكتي يا فلانة، فقد ذهبت الأمانة، أم في الجاهلية ولبيد يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول:

بلاد بها كنا وكنا نحبها

إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وروي عن آدم عليه السلام:

تغـــيرت البـــلاد ومـــن عليهـــا

ووجـــه الأرض مغـــبر قبيـــح

أم قبل ذلك، وقد قالت الملائكة، «**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**»، وما فسد الناس وإنما اطرد القياس، ولا أظلمت الأيام وإنما امتد الظلام ؛ وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ويمسي المرء إلا عن صباح!.

يتبين لك من كلام البديع أن فساد الغرائز متسلسل في البشر من مبدأ الخليقة، ففي كل دهر كان الناس يشكون مساوئ الأخلاق والشيم، وقد قال لابروير:

«لا ينبغي لنا أن نغضب على الرجال إذا آنسنا منهم الشدة؛ وكفر النعم والظلم والكبرياء ونسيان إخوانهم فإنهم على هذه الأخلاق جبلوا وعلى هذه الشيم طبعوا وإذا كنا لا نستطيع أن نتحمل أخلاقهم هذه فكأننا لا نستطيع أن نتحمل إهواء الحجر إذا أفلت، وإحراق النار إذا أجت».

* * *

يتوارث البشر منبسط الأمصار، وطرائف العلم والحكمة وعظيم الكنوز والأموال إلا أن الملك الذي ينتقل إلى أمة من الأمم قد تذهب رسومه وآثاره على تعاقب السنين، والعلم الذي تقتبسه قد تبدله الأيام والتجاريب فيزيد أو ينقص، والأموال التي تصير إليها قد يبدد الإسراف شملها، وأما الأخلاق التي توارثها الناس تثبت دهراً طويلاً وأحقاباً مديدة فلا يخطرن ببال أحد أن تعاقب خمسين سنة أو مائة سنة يبدل من الأخلاق أو يغير من الطبائع.

قال أناتول فرانس:

«كنت في بعض الأحايين أشاهد صغار أمور تجري بمرأى مني، فيخيل إلي أنها من خصائص الدهر الذي أنا فيه، وأنها تجري في أيامنا ولم تستفض من قبل، غير أنني كنت أجد أبداً في تواريخ قديمة الأمور نفسها في أحوال متشابهة، ففي أعماق نفوسنا أشياء كثيرة من الطبائع البشرية التي قل ما تجد لها تبديلاً.

فإذا اختلفنا عن أجدادنا فإننا نختلف عنهم اختلافاً يسيراً جداً ولا تتغير أذواقنا وعواطفنا إلا إذا تغيرت الأعضاء التي تتولد منها الأذواق والعواطف، وهذا لايتم إلا في قرون فلا بد من تعاقب مئات أو آلاف من السنين حتى تبدل طبائعنا تبديلاً عظيما.

جريدة المقتبس ١٠/٣/١٩٣٤

العلم في مصر

جاء في المقطم أن أهل المنصورة شرعوا في تأسيس مكتبة اسمها (مكتبة المنصورة) فتبرع أحد علماء الديار المصرية الأستاذ محمود نجم نقيب أشراف الدقهلية بسبعمائة وسبعين مؤلفاً نفيساً وآلات وأزياج فلكية فقرر الأهلون أن يحتفلوا بتكريمه وينصبوا رسمه في غرفة المطالعة مبالغة في احترامه.

هذا ما تستفرغ فيه الأمم المتحضرة مجهودها حرصاً على حياتها، واحتفاظاً ببقائها فلا تجد لها مندوحة عن التضافر على ما يسمو بها إلى المنازل الرفيعة ومعاونة العلم على الاستفاضة في طبقات الناس حتى تأنس به ألبابهم، ويأخذوا منه بالحظ الأوفر.

ولو ذهبت هذه الأمم إلى إهمال العلم وخذلانه لبلغ الأنحطاط منها أقصى مبالغة فإن العلم قد جعل صقالاً للعقول، وتحلية للأنفس، وقوة للشعوب، وقد يبلغ المرء بوفور علمه مالا يبلغه بشدة بأسه.

كثير من جلائل الأعمال إذا انفرد المرء بمباشرتها و لم يستظهر بغيره على استتمامها قعد به العجز عن بلوغ الغاية منها وانقطعت به الأسباب، ولكنه إذا استنجد غيره على استكمالها هانت وأنقادت له على استوائها.

فلو ذهب كل رجل منا إلى أن يجمع في خزائنه ما يحتاج إليه من نتائج الخواطر وثمرات القرائح لما تمهد له السبيل إلى ذلك لقلة الكتب في بلادنا وغلاء أسعارها فلا نزال مفتقرين إلى مكتبة وطنية تشتمل على

كتب الاجتماع والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والأدب والشعر وجرائد أوروبا ومصر وأميركا ومجلاتها.

حاجتنا إلى مكتبة عصرية مثل حاجة الفقراء إلى الملاجئ الخيرية التي تضمهم إليها، وتنظر في تقويم أولادهم صيانة لهم من أن يمضي الجوع بهم في حداثة سنهم، فإذا كانت الملاجئ الخيرية تعكف على إطعام الفقراء وإصلاح حالهم فإن المكاتب العلمية تصقل العقول وتشحذ الأذهان.

وما تربيه الأجسام بأفضل من تربية الأفهام، ولا تقوية الأبدان بأجل من تقوية العقول فإن المكتبة مدرسة يتعلم المرء فيها ما لم يتيسر له الوقوف عليه في المدرسة التي نشأ فيها وتأهب.

يدخل الرجل المكتبة فتقع عينه في خزانتها على أرواح رجال السياسة وعلماء الاجتماع وأصحاب الثورات وأهل الفلسفة وجهابذة الأدب وأمراء الشعر فيجلس إليهم ويكون كأنه إياهم يحاور، ولهم يستمع فيتخلق بأخلاقهم ويقتبس من علومهم وعلى قدر جودة الكتب تكون الفائدة.

يضيق علينا العذر أن تكون دمشق وهي المدينة الشرقية التي بَعُد صيتها في الآفاق عطلاً من مكتبة عصرية وما جودة هوائها وعذوبة مائها وحسن منظرها والتفاف جناتها بشيء يذكر إذا لم يكن فيها مكتبة بشكل المكاتب العصرية ولها قدوة حسنة بالمدن الكبيرة في ممالك أوروبا وأميركا أو مصر التي لا تخلو من مكتبة محكمة البناء نفيسة الكتب وجامعة ومتحف وحدائق للحيوانات والنباتات ومجتمعات للعلماء والأدباء واصحاب التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك من منازع الحضارة التي تدل على علو قدر الأمم.

لو كان اهتمامنا من زمن بعيد بتأسيس المعاهد العلمية مثل اهتمامنا بتمهيد حفلات اللهو، أو كان سخاؤنا في العلم مثل سخائنا في الباطل لما طمع فينا طامع، ولا نالنا نائل.

يجود المرءُ في مقامات اللهو بما تملك يده من المال طمعاً في استمالة فاجرة إليه، واستعطافها عليه ويضن بمعشار ذلك على العلم والأدب.

في أميركا من الأغنياء مثل كانجي الثري الشهير من بذل من ماله كل سنة خمسة أو ستة ملايين ريال أميركي لاصلاح خزائن الكتب في بلاده وهو يقول: إن المكتبة مدرسة في الحقيقة وفي بيونوس إيرس مكتبة تحتوي خزائنها على مائة واثنين ألف مجلد جمعها القائد ميلنر في داره فلما توفاه الله قررت الحكومة أن تجعل داره أثراً وطنياً فوهبت أسرةُ القائد مكتبة فقيدها للأمة.

أفي الحق أن تترامى إلينا هذه الأخبار ونحن معرضون عن الاستفادة منها؟ لا تقوم الأمة إلا بوفور علمها وتناصر رجالها على إقامة رسم العلم وأمضاء حكمه وإذا سقط نظرها في هذا الأمر الجليل ضعفت قوتها، وصغر قدرها في العيون، فمن الضروري أن نبني على أصول الأمم المتحضرة في مظاهرة العلم حتى نوطيء لنا مركزاً حصيناً في معترك البشر.

مجلة لسان العرب ٦ تشرين الثاني ١٩١٨

obeikandl.com

الدولة برجالها

إن كان لاستعداد الدولة شأن في مناعة جانبها ونفوذ أمرها فإن لرجال هذه الدولة شأناً أكبر في دوام ملكها وتسديد أحوالها، وقلّما ينفع غنى الدولة وتكامل أدواتها بقدر ما ينفع توسع أصحابها في السياسة، وبراعتهم في التدبير فإن كثيراً من الدول قد اجتمع لها من أسباب القوة والعظمة ما تستطيع أن تحفظ به ملكها على وجه الدهر، إلا أن رجالها لم يأخذوا حظهم من رياضة الأمور وتقويمها، ولا حذقوا مصادر السياسة ومواردها فكانت قلة فطنتهم سبباً في انحطاط منازلها وانتقاض سلطانها.

هذه تركيا! فقد تيسر لها في الحرب من المال والجند ما يمهد لها من السبيل إلى الذود عن حوضها والحياطة لحوزته، إلاّ أن ما نقص رجالها من النظر والاختبار كان السر في انخفاض شأنها وزوال ملكها.

ولاشيء بعد اجتماع القوة أوجب من اتقان التدبير واحكام السياسة وإنما مثل الذي يتهيأ لهم عظيم من الملك و لم يترفقوا بالمحافظة عليه كمثل الذين يظفرون بكنز من المال فيبددون شمله بالاسراف والتبذير.

أخطأ من يغبط الدول على استبحار عمرانها وانبساط سلطانها و لم يغبطها على نبوغ رجالها واستحكام عقولهم.

وإذا تمنينا أن يكون لنا من الجاه والمال ما لأميركا وأمثالها فأخلق بنا أن نتمنى قبل هذا كله أن ينشأ في ظل بلادنا رجال يشابهون النابغين من

رجال الأمم العظيمة فيجتهدون في مصالحنا، ويغتنون بمرافقنا... فرب رجل بلغ بقومه غاية من المجد لم يبلغهم بها شديد باسهم وجودة سلاحهم.

من كان يعلم قبل هذا العهد أن اليونانيين سيتستولون على أزمير وغيرها من الموانئ وأنهم سيحصلون على ملك ما خطر لهم ببال؟ أجل إن اليونانيين قد أصبحوا بمنزلة دولة من دول أوروبا العظيمة على أنهم لم يبذلوا في تأثيل هذا المجد أرواحهم ولا أنفقوا في التطاول له أموالهم، ولكنهم قد رزقوا رجلاً مثل فنزيلوس فجلب لهم بحسن سياسته من المنافع ما لايقدرون على استجلابه بالقوة وفنونها و لم يستعمل في هذا كله إلا كلمات كانت تخرج من حواشي قلبه بمحضر من رجال الحلفاء فتهتز لها أفئدتهم فلا يجدون إلى الصدوف عن مقالاته سبيلاً، ولايرون في خلاف آرائه مطمعاً.

هذا ما حمل اليونانيين على المبالغة في تبجيل فنزيلوس وتعظيمه فقد شرعوا في نصب تمثال له في قانيا احتفاظاً بذكره على تراخي الأيام فضلاً عن أن كل رجل منهم قد جعل صورة هذا الداهية في إطار وعلقها في دار بيته وهو يصور نظره فيها ويصعده في منصرم النهار ومنبثق الصباح.

قد كان عبد الملك يقول لبنيه: كرموا الحجاج فهو الذي وطأ لكم المنابر، وفرش لكم المحبة في صدور الناس، وإنما السبب في إيعاز الخليفة إلى بنيه بتوقير الحجاج ما كان من تثبيت الحجاج لملك بني أمية في العراق على حين زواله وانحلاله.

تسعد الأمم برجل من رجالها مثلما سعد اليونانيون بفنزيلوس وتشقى أيضاً بفرد من أفرادها مثلما شقي الترك بأنور وإخوانه، فالرجال هم الذين

يشيدون أركان الدول بحسن سياستهم فيعلو شأنها دون أن يكون لها عظيم قوة، وهم الذين يلقون بالرعايا في المواطن المجحفة ويفضون بالبلاد إلى الخراب فيزول سلطانهم على حين عنفوانه، ومتى اجتمع للدولة رجال يستطيعون بما اقتبسوه من علم، وما استفادوه من تجربة أن يذودوا عن حماها فقد خلصت إلى هذه الدولة ذخيرة لا يضرب لها بالاملاق، وإنما الدولة بأصحابها كالبحر بأمواجه، وكالفلك بكواكبه ولا سلطان إلا بالرجال.

جريدة لسان العرب ١٠ حزيران ١٩١٩

obeikandl.com

obeikandl.com

تكريم فضلاء الناس

في مدينة باريز بناء فخم اسمه البانتيون رفع على رأس جبل قديم ؛ وقد بني هذا البناء على طراز يوناني حديث، وفي عليائه قبة ذاهبة في السماء، وكان البانتيون متعبد القوم قبل الثورة الفرنسية، فلما لمعت عوارض الثورة، وهمعت شآبيبها جعل مدفناً وكتب عليه هذا الكلام:

«الوطن المقر بفضل عظماء الرجال»

وهو يشتمل على رفات القناعيس من رجال السياسة والسيادة، وصناديد القواد، وفحول الشعراء ؛ وبلغاء الكتاب وأكابر الأدباء والعلماء أمثال فيكتور هوغو والعالم الرياضي لازار كارنو والجنرال مارسو وأميرال بودان، ورئيس الجمهورية سعدي كارنو، والكاتب المؤرخ رنان وكثير ممن هم في طبقاتهم ومراتبهم.

* * *

الحفاوة بفضلاء الناس، والمبالغة في تبجيلهم مذهب من مذاهب أوربة في عصرنا، ولا ريب في أن هذا المذهب يؤدي إلى الخواتيم المحمودة في المجتمع البشري، فإنه يستنهض الناس للتشبه بالعظماء والتقبل لطرائقهم حتى يصلوا إلى ماوصل إليه فضلاء الناس من رفيع المنازل، فيتنافس البشر في جلائل الأمور فيكون تنافسهم مجلبة للآثار الوضاحة في تحسين العقل واستفحال الحضارة، لأن ثمرات القرائح ونتائج الخواطر تصبح سلسلة آخذةً حلقاتها بعضها ببعض، كلما فرغت جماعة من أحكام حلقة، تجردت جماعة غيرها لإتقان حلقة ثانية من هذه القرائح والخواطر، فيتكامل البشر على تراخي الأحقاب.

من حقائق الأمور أن الإنسان إذا أضمرته الأرض درس رسمه وطمس أثره، وسواءً عليه ذكره القوم بعد موته أم لم يذكروه فإنه لايشعر بشيء من هذا كله، فمن عاش مات، ومن مات فات، فلا يرجع سجيس الليالي.

ألا أن تكريم فضلاء الناس بعد ذهابهم ينفع الجماعات إن لم ينفع الأفراد فهو يقوي العواطف القومية والعقائد الوطنية في القوم فلا يطمع فيهم طامع، ولا ينال منهم نائل، من أجل ذلك بجل الافرنجة فضلاء أمواتهم التبجيل كله، وربما كان احتفالهم برجل عظيم بعد موته أشد من احتفالهم به في حياته ؛ فإن البنين إذا امتثلت أذهانهم صور أفاضل رجالهم، ذكروا تليد مجدهم في كل طرفة عين، وتبججوا بغررهم و حجولهم فتنشأ في نفوسهم عزة على وجه الدهر.

* * *

قال أناتول فرانس في خطاب ألقاه في التروكاديرو في باريز في أثناء الاحتفال بتعاقب مائة عام على وفاة رنان:

«نشأت عبادة عظماء الرجال مع نشوء الديموقراطية وقد حدثت هذه العبادة في فرنسة زمن الثورة وجعلها أوغست كونت بمنزلة عقيدة من عقائد البشر».

وقال غليوم فرورو المؤرخ الإيطالي:

«أصبح الاحتفال بتعاقب مائة عام على وفاة فضلاء الرجال عقيدة قومية في كل البلدان، وهذا مما أحدثه القرن التاسع عشر».

وقال فلوبر:

«إن أكبر المحسنين إلى الخلق إنما هم عظماء الرجال، فمن المعدلة أن يبالغ البشر أحسن المبالغة في الإقرار بفضلهم، والاعتراف بصنائعهم».

* * *

ذهب الافرنجة في تكريم رجالهم مذاهب بعيدة ؛ وأخذوا في افانين غريبة من شأنها تأييد القومية، وتمكين الوطنية فتراهم يحتفون بعظماء رجالهم كلما توالى على موتهم مائة عام،فيدبجون الفصول الطوال في الكلام عن تآليفهم وأطوارهم وأوضاعهم وأخلاقهم ويشهد الاحتفال الملوك ورؤساء الجمهوريات والوزراء والعلماء والقواد والسادات والأدباء والشعراء والكتاب والخطباء ؛ ومن هم في هذه الطبقات ويذهبون إلى بلد الذي يحتفون به ويلقون الخطب فيه، ومن عاداتهم في ذلك إنهم يحتفظون بالدار التي ولد فيها شاعر من شعرائهم أو كاتب من كتابهم أو قائد من قوادهم أو وزير من وزرائهم، ويعنون بها عناية خاصة، فإذا مررت بجادة من جواد باريز محكمة متقنة بنيت على طراز حديث وجدت فيها داراً ليست من طراز هذا العصر ولا تشابه أوضاعها أوضاع الديار المجاورة لها، فإذا سألت عنها قيل لك:

«إنها لفلان وهو شاعر قبض منذ مائة سنة أو مائتي سنة أو أكثر من ذلك».

ومن شنشنتهم في التكريم أنهم يسمون جوادهم وسفنهم ومعاهدهم العلمية بأسماء عظماء رجالهم فيقولون:

«جادة لامارتين، باخرة ولدك روسو، معهد باستور».

وكل عادة من هذه العادات المحمودة تؤثر في نشوء القومية أبلغ التأثير، والفرق ظاهر بين الأمم التي تحتفظ بذكرى فضلاء رجالها وتحرص على رسومهم وآثارهم، وبين الأمم التي تغفل ذكر رجالها بعد موتهم فإن القومية في تلك مكينة القواعد، متينة الدعائم، وفي هذه تضعف القومية فلا تكاد تجد لها أثراً.

* * *

ومن مذاهب تكريم الرجال في هذا العصر مذهب (الجندي المجهول) وهو أن تعمد حكومة من الحكومات التي خاضت غمرات الحرب المنصرمة ؛ إلى جندي مغمور النسب قتل في جاحم الهيجاء، فتضع الأزاهير على قبره وتسرف في إكرامه وتعظيمه أجمل الإسراف، حتى أن الحكومة الفرنسية قد أمرت بأن يكون على جانب القبر ضياء يتلألأ في كل أمسية تلألؤ الفراقد في صفحات السماء فيكون هذا الضياء ذكرى لأهل باريز، وقد سمته الحكومة (ضياء الذكرى) ومعنى ذلك أنه يذكر أهل فرنسة أبطالها الذين جادوا بمهجهم في الذود عن حياضهم وبذلوا أرواحهم في سبيل وطنهم.

فإذا تلألأ ضياء الذكرى في ظلماء الليل ذكر أهل باريز أبناءهم الذين فقدوا في الحرب ؛ وخطرت بأفئدتهم الشدائد التي قاسوها والآلام التي عالجوها فلا تفرج غمتهم ولا تروى غلتهم إلا إذا أنفذوا وصية الجندي المجهول وذهبوا في النضال عن وطنهم كل مذهب.

مات في الحرب الكبرى مؤرخون وعلماء وأدباء وكتاب، وقد وجدوا في دفتر ضابط عمره ثلاث وعشرون سنة هذه الكتابة:

«إنني أموت في سبيل بلد أحبه حباً جماً إنني أموت كما مات كثير من تلاميذ دور المعلمين وكما سيموت غيرهم، أموت وقد أديت الواجب، غير أني لا أخلو من قلق يقلقني، وألم يؤلمني، فإني أموت هذا الموت على شرط أن لايكون موتي وموت أمثالي عبثاً ؛ وأن تخرج فرنسة من هذا المأزق عظيمة».

فإذا احتفلت فرنسة بالجندي المجهول فإنما تحتفل به لأن الدم الذي بذله في غمرات الحرب كان سبباً في تأييد استقلالها وتوطيد شرفها.

* * *

لما مات العالم الإنكليزي جانر منقذ الخلق من الجدري، احتفل به مجمع الطب الفرنسي وكان البشر ينظرون إليه نظرهم إلى محسن كبير أحسن إلى الخليقة، وقد وهبت له الحكومة الإنكليزية هبة جزيلة، وجعلته في أعضاء المجتمع الملكي في لوندرة وكان عضواً في كل المجتمعات الطبية في لوندرة، وكثير من الملوك أكرموه وأجزلوا له في العطاء، حتى أن الحكومة طبعت وساماً على ذكره.

* * *

ظهر في القرن الثامن عشر على عهد الملك لويس السادس عشر رجل اسمه بوسار وكان يعيش على أسياف المانش بين برست ودنكرك، وهو نوتيّ مولع باستنقاذ الغرقى، وتنجية السفائن التي تشرف على الهلاك، فكان يلقي بنفسه في المواطن المجحفة غير رعديد ولا أجفيل، وكثيراً ما كانت زوجته وأولاده وخلطاؤه يرغبونه عن المغامرة فلم يعبأ بأقاويلهم، وكان في فاتحة أمره مغمور الصيت ففي سنة ١٧٧٧ عصفت ريح في البحر فكانت سبباً في استفاضة صيته في آفاق فرنسا، فقد مخرت سفينة عليها ثلاثة عشر راكباً، ثم لم تستطع أن تلقي مراسيها فقحم بوسار في لجج البحر ولم يزل بالركاب حتى استنقذهم بقضهم وقضيضهم وقد أوشك أن يموت، فذهب صيته بعد ذلك في نواحي العالم بأجمعه وعلم بالأمر ملك فرنسة فأرسل إلي ألف دينار وجعل له في كل سنة ثلاثمائة دينار وقد لقبته الصحف بمنقذ البشر واستقدمه الملك إليه فقدم باريز وقابله فيها الوزراء والأمراء والفلاسفة والكتاب والشعراء ثم عاد إلى مدينته فبنت له مدينة «ديب» داراً ولقبه رجال الثورة «بابن البلد الكبير».

ولو أحببنا أن نستقصي أمثال هذه الأنباء لاجتمعت لنا طائفة كبيرةمنها تدل على مقادير عظماء الرجال في العيون، وقد بلغ من اهتمام

الافرنجة بتكريم النابغات أن نصبوا لهن تماثيل، وجعلوا لهن أعياداً يعيدون فيها على ذكرهن كعيد جان دارك وغيرها وفي جميع ذلك حجج واضحة على قوة القومية في آفاق الغرب.

* * *

أي عينٍ لا تدمع، وأي قلب لا يحزن إذا رمى أحدنا بطرفه في بلادنا ولم يجد أثراً لشاعر من شعرائنا أو كاتب من كتابنا، أو قائد من قوادنا الذين أضاؤوا الظلمات ومهدوا الملك ووطدوا السلطان.

لقد خفيت علينا آثار رجالنا وذهبت عنا رسومهم، فإذا عرفنا البلد الذي نشأ فيه أبو تمام أو المتنبي أو المعري فإننا لانعرف لهم في هذا البلد أثراً، يموت شاعر من شعراء الإفرنجة ويأتي علىموته خمسة قرون فتبقى داره علىٍ حاله لم تعبث بها الأيام، ويموت شاعر من شعرائنا فلا نعرف له ضريحاً يهدأ فيه رفاته.

دع عنك آثاره ورسومه، ومن العجب العجاب أنه إذا نبغ فينا نابغ أو برع بارع تواطأ عليه الحساد فلا يزالون به حتى يعاف الحياة من قوارصهم والعياذ بالله.

جريدة المقتبس العدد ٣٩٠٠ في ٢٥ كانون الأول ١٩٢٣

الأدب الساقط

اجتمع أبو العتاهية وابن مناذر وكان يقال لهما شيخا الشعراء، فقال أبو العتاهية لابن مناذر:

يا أبا عبد الله كيف أنت في الشعر، فقال ابن مناذر: أقول في الليلة إذا سنح القول، واتسعت القوافي عشرة أبيات إلى خمسة عشر، فقال له أبو العتاهية: لكني لو شئت أن أقول في الليلة ألف بيت لقلت، فقال ابن مناذر: أجل والله إذا أردت أن أقول مثل قولك:

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

قلت ولكني لا أعوّد نفسي مثل هذا الكلام الساقط، ولا أسمح لها به، فخجل أبو العتاهية وقام يجر رجله.

* * *

لا أرى بي حاجة إلى بيان ما للأدب البارع من جلائل الآثار في الشعوب فقد كان عبد الحميد الكاتب يقول:«إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتّاب».

سلْ أدباء الفرنسيس عما كان لمؤلفات مونتيسكو وفولتير وأشباههما من محمود العواقب، فقد قدم فولتير بلاد الإنكليز سنة ١٧٢٦ هرباً من الباستيل، فاقتبس عن الانكليز بعض خواطره السياسية وفشاها في فرنسة وكان من أمرها ما كان، وكذلك مونتيسكو فقد سافر إلى

انكلترة سنة ١٧٢٩ فأقام بها سنتين وتعرّف فيها إلى كبار الكتاب الأنكليز، ثم نشر أفكاره فانفجر بنشرها ما انفجر، فالأدب هو العامل الأكبر في استفاضة الأفكار المطلقة في آفاق فرنسا، وللأدب فاعلية في العقول، فقد قال أناتول فرانس في كلام له عن الشعراء:

«الشعراء هم الذين يساعدون البشر على الحب، ولهذا فإننا نجدهم كراماً علينا، فهم يضيئون بضيائهم ظلمات أفراحنا، ويكشفون غوامض آلامنا، ويجعلون لهذه الأفراح والآلام ألسنة فكأنها تنطق وتتكلم، يقولون لنا ما نشعر به شعوراً غامضاً، فهم ألسنة أنفسنا، وبهم نحيط علماً بملاذنا واضطرابنا».

ولكن من هم الشعراء الذين يفعلون هذه الأفاعيل في البشر!

ومن هم الأدباء الذين يكون لهم هذه الآثار في الشعوب!

لاشك في أن ابن مناذر قد فطن للكلام الشريف الذي يعمل عمله في القلوب، فكأن أبا عبد الله قد أدرك سر العبقرية ونفذت فطنته غوامضها، فالرجل الذي لا يعود نفسه الكلام الساقط ولا يسمح لها به جدير أن يعرف معنى العبقرية.

أو علمت بأن العبقرية ليست بالأمر الهين، وأن قنطرة المرء وسكناه قصراً بندقياً منجداً أهون عليه من أن ينشيء صفحة واحدة عبقرية على ما قال «فلوبر».

فلا يخطرن ببال أحد أن العبقرية تأتي بعد الصبر الطويل ولكنك لا ترى العبقرية إلاّ رأيت معها الصبر والمجهود والمثابرة، فالأثر الأدبي مهما كان نوعه يستلزم الجد مثل كل أثر، متى كان الرجم بالغيب يسد مسد التحقيق، ومتى كان الجهل يقوم مقام العلم، فكل عمل يتوخاه المرء فلا

بد فيه من التحصيل، فإن جلائل الأعمال لا تظهر إلا بعد العناء والمشقة، فالإبداع يستوجب البحث والتنقيب ويستلزم العمل والروية.

أراد أحد شباب الفرنسيس أن ينصرف إلى الأدب فسأل «فلوبر» عن رأيه في ذلك فقال له فلوبر:

«الإخلاص يدفعني إلى أن أبين لك أن استثمار عملك أمر صعب جداً إن لم يكن ممتنعاً، إنك لا تزال ناعم الشباب فاعمل واعمل كثيراً واعتزل في عملك ولا ترج أن تكون لك مكافأة، ولا تفكر في نشر ما تكتب، تقبّل طريقتي، فقط كان عمري سبعاً وثلاثين سنة لما نشرت (مدام بوفاري) فإذا خطر ببالك أن تستخرج فائدة ما من آثارك ضللت وكنت من الخاسرين، فلا تفكر إلا في الفن ذاته وفي كمال، وما عدا ذلك فهو تابع له.

لا تظن أن حياة أديب مثلي ناضرة بالأزاهير فإذا ظننت شيئاً من ذلك كنت من الواهمين، إذا كان حبك للأدب خالصاً فحصل الأدب لنفسك قبل كل شيء واقرأ كثيراً كتب المدرسيين، وروّض قلمك على كتابة أشياء شعرت بها، وعلى وصف البيئة التي تأنس بها».

الأدب الذي وصفه فلوبر هو الذي يتغلغل في القلوب فينبه العقول ويستحث العزائم ويصقل الأخلاق، فمن تطاول للأدب و لم يستعد له فلينظر إلى قول «لابروبير» فيه وفي أضرابه:

«يأخذ فلان ورقة وقلماً فجأة من دون أن يفكر في ذلك من قبل، فيقول في نفسه:

أريد أن أؤلف كتاباً على أنه ليس له استعداد للكتابة، ولكنه في حاجة إلى خمسين بستولا[1] فأصيح به من غير جدوى: خذ المنشاريا«ديوسكور» وانشر أو اصنع دائرة دولاب فتحصل على أجرتك، ولكنه لم يتعلم هذه الحرف كلها فأقول له: انسخ اذن أو صحح في المطبعة، لا تكتب.

بيد أنه يريد أن يكتب، وأن يطبع كتاباته، ولما كانت المطبعة لا يرسل إليها دفتر أبيض فإنه يسوده بما يروقه فيكتب مثلاً:

«أن نهر السين يجري في باريس، وإن الأسبوع فيه سبعة أيام، أو أن السماء ماطرة، ولما كان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة، ولا يؤدي نشره بين العامة إلا إلى افساد الذوق وتعويد العامة الأشياء التي لا طعم لها، يعرض على المراقبة ثم يطبع فيعاد طبعه مع ما في ذلك من العار على الأجيال وعلى كبار المؤلفين».

وقال بوالو في هذا المعنى:

كن إذا شئت بنَّاءً إذا كان لك استعداد لذلك، أو عاملاً في حرفة ضرورية بدلاً من أن تكون كاتباً مبتذلاً أو شاعراً عامياً».

أفلا يتدبر الذين يملأون الصحف بخواطرهم السمجة وهواجسهم الفظة البالية؟...

---

[1] ضرب من المسكوكات.

لا قديم ولا حديث

أشغل شيء لأدباء هذا العصر إنما هو القديم والحديث، ولقد جال كتّاب مصر في هذا الميدان كل مجال، حرص بعضهم على الأدب القديم وتغنت طائفة منهم بالأدب الحديث، ولعمري ما هو الأدب القديم؟ وما هو الأدب الحديث؟

وهل من أثر في الحقيقة لهذين الأدبين؟ القديم كان حديثاً في عصره والحديث في هذا العصر سيكون قديماً في عصر غير عصرنا، فإذا قلنا الأدب القديم فإن قولنا هذا نسبي، أمرؤ القيس ـ سواء أعاش امرؤ القيس أم لم يعش على رأي الدكتور طه حسين ـ قديم في نظرنا ولكنه في عصره كان حديثاً فهو مجدد ولعله إمام المجددين، و لعله من أئمة المجددين، إنه أول من بكى على الطلول أو إنه بكى على الطلول، على نحو المتقدمين أمثال عروة ابن حذام، وإنه فطن لاستعارات لم يفطن لها أهل عصره ثم جاء عصر وهو عصرنا هذا فأصبح امرؤ القيس قديماً من القدماء.

الأدب لا يثبت على حال من الأحوال فهو عرضة لكل تبديل فإذا ثبت الأدب على حال اضمحل أمره، وحياته في تبديله من عصر إلى عصر قدر ما تقتضيه أوضاع هذا العصر على مختلفها.

تتبّع إذا شئت أدب العرب نفسه إنك لا تشاهده جامداً إلا في أواخر عهده، فكم لفظة ماتت وكم لفظةٍ عاشت، وكم كلمة دفنت ثم بعثت في جاهلية لغتنا وإسلاميتها، وفي أمويتها وعباسيتها، هل كان الشعر

الجاهلي مثل الشعر الإسلامي، هل كان الشعر الأموي مثل الشعر العباسي؟ هل كان النثر على زمن بني أمية مثل النثر على زمن بني العباس؟ أفلم تعرض عوارض وتحدث حوادث من زمن إلى زمن استلزمت تبديل الأدب!

ولو لم يتبدل الأدب بحسب هذه العوارض لأتى عليه حين من الدهر لم يكنٍ فيه شيئاً على أن هذا التبدل يتعلق بالفن دون أن يتعلق بالمعاني إلا قليلاً.

تعودت من عشر سنين أن أعيّد في بيروت هرباً من ضوضاء العيد في دمشق فكنت في كل سنة أشاهد مشهداً جديداً، ولكني في العيد الأخير فطنت لأمر ما فطنت له من قبل، شاهدت بعضاً من بيروت القديمة تقوم بقلبها بيروت الحديثة، فإن طائفة من الموسرين هدموا الدكاكين القديمة وبنوا في أماكنها مخازن حديثة على الطراز العصري، فلو بُعث بيروتي مات من عشر سنين وجال جولة في وطنه لما صدق أنه في بيروت وربما تتغير هندسة المباني بعد حين من الزمن فيضطر أغنياء بيروت إلى هدم مخازنهم المبنية على طراز حديث لينشئوا في مواضعها مخازن على حسب الهندسة التي تعرض في العصر الآتي، لم يتغير شيء في الحقيقة من بيروت وإنما تغير العرض لا الجوهر فالمخازن الحديثة والدكاكين القديمة مبنية من آلات واحدة من حجارة وحديد وما شابه ذلك والتاجر الذي يعرض سلعته في مخزن حديث قد يستطيع إذا شاء عرضها في مخزن قديم ولكن المسألة إنما هي مسألة ذوق لا غير، فما أشبه الأدب قديمه وحديثه ببيروت قديمها وحديثها! هدم أغنياء بيروت مدينتهم القديمة ليبنوا مدينة حديثة جرياً على أصول هذا العصر وأزيائه وهندسته.

إنهم مشوا مع الزمن، وكذلك بعض رجال الأدب في هذا العصر فإنهم هدموا بناء أدبهم القديم لينشئوا لهم أدباً حديثاً بحسب أوضاع هذا الزمن فالأدب في الحقيقة واحد لم يتغير، وإنما الذي تغير فيه الفن، أي أصول الإفصاح عن عاطفة من العواطف أو طرق تصوير فكر من الأفكار، فكما أن مخازن بيروت الحديثة بنيت من حجارة وحديد تشبه حجارة وحديد الدكاكين القديمة وإنما تغير فيها طراز البناء وهندسته فكذلك نتائج الخواطر الحديثة فإنه تنشأ بمواد تشبه مواد الخواطر القديمة، ولكن الذي يختلف فيها إنما هو طراز إنشائها أي الذي يختلف فيها إنما هو طراز الفن ليس إلا، فالأفكار واحدة «لم يغادر الشعراء من متردم» أفلم تسمع ما قال أناتول فرانس:

«أي الرجال يستطيع أن يفخر بأنه فكر في أمر لم يفكر فيه غيره»؟

فالأديب يعلم علم اليقين أن الأفكار ملك الناس بأجمعهم، فلا يقدر أحد أن يقول هذا الفكر لي، الأديب يعلم أن قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر، فإفراغ فكرة قديمة في قالب حديث هذا هو الفن كله وهذا ما يستطيع البشر إبداعه وإنشاءه.

ليس الفكر بملك من يبدعه وإنما هو ملك الذي يثبته في أذهان الرجال.

وأبو هلال العسكري من رأي أناتول فرانس في هذا الأمر فقد قال:

«ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويبرزوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوا في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ولولا أن القائل

يؤدي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

«لولا أن الكلام يعاد لنفد»، وقال بعضهم:

«كل شيء ثنيته قصر إلا الكلام فإنك إذا ثنيته طال، على أن المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي.. وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها».

هذا ما قاله أبو هلال، فكم شاعر اهتدى إلى شيء لم يهتدِ إليه غيره ممن هو أحدق منه وأمهر، فصور هذا الفكر في صورة أبرع، فنسب إليه على توالي الأيام، فارجع إذا شئت إلى كتب الأدب فإنها مملوءة بحسن الأخذ وقبحه، طافحة بأسماء الشعراء الذين عفوا على آثار غيرهم بروعة معارضهم وبراعة قوالبهم.

فليس في الأدب على ما أعتقد قديم وحديث، وإنما هي أفكار إذا عرضتها في معارض من القول مناسبة لأوضاع العصر كانت حديثة، وإذا أبرزتها في حلي من الكلام مخالفة لأحوال زمانك كانت غير حديثة فقد تعرض في عصرك عوارض وتحدث حوادث تستلزم تبديل أدبك وتغييره فإن سلطان العقل يمتد أفقه من يوم إلى يوم، فلا بد بعد انبساط أفق العقل من تغيير أزياء الأدب وما الانقلاب الأدبي الذي تشاهد آثاره في مصر في يومك هذا إلا نتيجة من نتائج انبساط العقل، فقد درس الأدباء لغات أجنبية فاهتدوا إلى أنماط من التفكير لم يهتدوا إليها من قبل.. هذه نظرة عامة في الأدب القديم والحديث ولكن الشعر ما خطبه في هذا الانقلاب؟

إني أرى ما يراه أناتول فرانس لم تتغير شروط الفن من زمن هوميروس حتى يومنا هذا إلا قليلاً، وأناتول لا يخطر بباله أن هذه الشروط تتغير كثيراً من هذا اليوم حتى يوم القيامة.

البشرية نفسها لا تتبدل إلا ببطء.

ومهما كان جزع الشعراء الأحداث فإنهم إذا أرادوا أن يخلقوا للرجال احساسات جديدة وجب عليهم أن ينتظروا حتى يكتسب الرجل حواس جديدة، فاكتسابات مثل هذه لا تكون إلا ببطء عظيم.

في تعريف من التعريفات «إن الأدب إنما هو صورة أخلاقنا وصدى أفكارنا، وعواطفنا»، وإني أحب أن أشطر هذا التعريف شطرين فأطلق شطراً منه على الشعر فأقول:

«الشعر إنما هو صدى عواطفنا فالذين يحبون أن يغيروا الشعر العربي في هذا العصر فكأنهم يريدون أن يغيروا عواطف العرب نفسها، وهل يتيسر لقوم تبديل العواطف.

الرجل في هذا العصر لا يزال يشبه الرجل في عصر الكهوف والغيران من حيث عواطفه لقد تقدم الفكر بعض التقدم فاهتدى الناس إلى ما لم يهتد إليه الأولون، ولكنهم لا يزالون بشراً من حيث عواطفهم لم يتقدموا شبراً.

ولما كان الشعر لغة هذه العواطف فلا أدري كيف يريدون تغييره قبل تغيير العواطف ذاتها.

قد يتغير الفن نفسه ولو قليلاً، أي قد يتغير السبيل إلى تصوير العواطف فيكتسب المرء أموراً بانبساط العلم لم يعرفها من قبل، ولكن العواطف نفسها التي يصورها الفن لم تتغير، هل تختلف الدموع التي كانت تفيض على خدي امرئ القيس عن الدموع التي تفيض على خدودنا إلا بقدر ما أوتيه امرؤ القيس وما أوتيه شعراء هذا العصر من البراعة والمهارة في تمثيل هذه الدموع!

بعض أساتذة الأدب في مصر يرون أن النثر قد تقدم بعض الشيء ولكن الشعر لا يزال جامداً، قد يجوز أن يكون دخلت على النثر أمور حسنت من أوضاعه فجعلته يستوعب بعض نتائج الحضارة في هذا العصر، ولكن ماذا يريدون من الشعر أن يستوعب غير العواطف!

الشعر لم يجمد وانما جمد الفن، يحق للعلم كما قال أناتول فرانس أن يطلب إلينا أن يكون ذهننا مجتهداً أو فكرنا منتبهاً ولكن الفن ليس له هذا الحق.

مهمة الفن أن يلذك ويسرك ليس له غير هذه المهمة، ولكنهم في هذا العصر قد خلطوا بين الأمور فأحبوا أن يطبقوا على نتائج الأدب الطرق المطبقة على العلم، على أنه بين أنشودة من الأناشيد وبين الهندسة الوصفية بون شاسع، فالشعر غير الهندسة، وما ينبغي أن يكون ملاذ الفن متعباً للذهن.

مجلة فتى العرب تموز ١٩٢٨

obeikandl.com

صفحة من تاريخ العرب

بحسب ما يتهيأ للأمم من الرسوخ في الحضارة والاسترسال إلى منازعها، والتعود لنضارة العيش والاهتمام باقتباس العلوم، وتثقيف العقول، وتهذيب الأخلاق، ورياضة النفوس، يكون اضطلاعها بسياسة الملك وتمهيد أموره، وعلى قدر ما تنزع إليه الشعوب من الارتغاب في البداوة والاحتفال بمذاهبها والإيثار للشظف وخشونة العيش والزهد في اكتساب العلوم، والميل إلى مساوئ الأخلاق والتغافل عن اصلاح النفوس يكون بعدها عن سياسة الملك، وتقويم شؤونه.

ثم إن ارتفاع الأمم أكثر ما يتكامل لها في الاعتناء بمرافقها، والاكتراث لمصالحها.

ولا تزداد الأمة حرصاً على ما يتم لها فيه صلاحها إلا ازدادت قوة وعظمة كما أن انحطاط الشعوب أكثر ما يكون سببه في إعراضها عن النظر في مصالحها والإهمال لما يكون فيه خير لها وبقاء لحياتها ولا تردد هذه الأمة ميلاً إلى مفاسدها إلا ازدادت قرباً من الانحطاط، ومبادرة إلى الانقراض، والمثل في ذلك أن الأمة إذا كانت قوتها في مزاولة الصناعات فلا جرم أن ضعفها يتباهى إليها من تعودها عن ممارستها أو انصرافها إلى ما ليس فيه صلاحها.

كانت العرب قبل استفحال ملكها واستبحار عمرانها أكثر الأمم بداوة وأبعدها مجالاً في القفار فلم يكن لها بسبب ذلك مهارة في سياسة الملك في صدر أمرها.

فلما استقر الاسلام وانتظمت قلائده طمحت همم أصحابه إلى تمهيد الدول والاستكثار من الفتوح فتأهبوا لمحاربة الأمم ومجاذبة الشعوب فجيشوا الجيوش وجمعوا السلاح والكراع وأخذوا يحاربون من أقام على محاربتهم ويوادعون من طمع في موادعتهم حتى دخل الناس في ملتهم وأذعنوا لسلطانهم فتمهد لهم عظيم من الملك وغلبوا على كثير من الخلق وامتد ظلهم إلى مشارق الأرض ومغاربها في أقرب مدة، فلما استقامت لهم أمور الملك واستقرت قواعده وفرغوا من المحاربات التي وقعت في صدر الدولة أخذوا أنفسهم بالبحث عن مكامن العلم والوقوف على كنوز الحكمة فاستفرغ الخلفاء منهم مجهودهم في نقل العلوم إليهم، واستنهضوا العلماء لتعريب صحف الأعاجم حتى استحكمت فيهم مذاهب الحضارة، وفتحت لهم أبواب العلم فضربوا في الأداب بالسهم الفائز وأخذوا منها بالحظ الأوفر وعكفوا على الطب حتى استنبطوا من العلاجات ما سبقوا فيه من تقدمهم من الأمم ومالوا إلى الحديث وعلوم الشرع وأخذوا في وضع علم الكلام وانصرفوا إلى الاهتمام باللغة فوضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الاصلاح.

وقد نبغ فيهم رجال بلغوا في سياسة الملك غاية تقصر عنها الهمم وتقف دونها الأقدام قال ابن عبد ربه في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، كان هؤلاء قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها، وضرموا الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور

وجربوا الدهر فتسلموا أعباءها وافتتحوا مغالقها حتى استقرت قواعد الملك وانتظمت قلائد الحكم ونفذت عزائم السلطان.

وقد أقر بفضل العرب رجال لم يكونوا من العرب العرباء وإنما نزلوا بين ظهرانيهم فاستبانت لهم مكارم أخلاقهم ومحامد شيمهم ومن هؤلاء الرجال الذين لم ينكروا فضل العرب البليغ عبد الله بن المقفع الذي قال عنهم:

إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت أصحاب أبل وغنم وسكان شعر وأدم يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده يشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويقبله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم وهممهم،وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال:

﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان.

ثم تظاهرت على العرب بعد امتداد سلطانهم مناحس الأمور فقلّ نظرهم في شؤون الملك لما استولى عليهم من الترف، ولما وقع ظل الترك على جو هذه البلاد تفاقم خطب العرب لما كان من استبداد الترك بالملك دون غيرهم من الأمم التي دخلت في طاعتهم، فلم يكن للعرب معهم تصرف في أمور الملك ولا مشاركة لهم في مراتب الدولة وخططها فكيف يجدون السبيل إلى الإرتفاع إذا لم يكن لحكامهم نظر في أحوالهم فضلاً

عن أن الترك لم يجدوا لهم أثراً إلا طمسوا ولا دعامة مرفوعة إلا وضعوها حتى لايكون لهم منهم منازع في سلطانهم، ولو صرفوا همتهم إلى الاعتناء بمرافقهم لبلغ العرب في العلم والحضارة غاية لا تجاريهم فيها الأقدام ولا تزاحمهم المناكب.

غير أن الله قد رزقنا رجالاً من العرب العرباء نزعت بهم هممهم إلى استنقاذنا مما كنا نتقلب فيه من العذاب فقاتلوا الترك قتالاً أحبوا معه الموت حتى متحهم الله أكتافهم فجديرٌ بنا بعد أن نسخ الدهر ظل الظالمين وذهب برسومهم وأثارهم أن نستنفد وسعنا في استدراك ما فاتنا من الأمور التي تمهد لنا السبيل إلى حفظ بقائنا حتى تستحكم فينا مذاهب الحضارة، وتحصل لنا ملكات العلم، فأول ما ينبغي لنا النظر في آداب قومنا واستقصاء أفضلها ثم الاقتداء بالأمم المرتفقة في الجميل من عاداتها والمحمود من أخلاقها حتى تستقيم لنا أمور الملك ويتم تمهيد شؤونه.

هذا الرئيس ويلسون قد أفصح: «بأن من الواجب على الشعوب التي أذعنت لسلطان الترك دهراً طويلاً أن تخلع رقة الاذعان من عنقها وتسعى في حفظ بقائها وتتولى الحكم في أمور ملكها».

فأصبح من المخلقة بنا أن نجعل كلام الرئيس نصب أعيننا ونجدّ في اللحاق بالأمم التي بلغت من العمل والحضارة المبالغ.

جريدة لسان العرب ٢٢ تشرين الأول ١٩١٨

لزوجة الحياة

وصفت السيدة إيفون سارسي والدها «فرنسيسك سارسي» في مقال في مجلة(Les Annales) وهذا بعض ما علق بالحفظ منه:

«كان أبي ينهض بأعباء الحياة الثقيلة والابتسامة على شفتيه، فقد كان جذل الظاهر والباطن، يستقبل المحن وهو هادئ البال، حتى كنت أقول في نفسي: أفلم تجر دمعة في قلبه، وكان ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن فإذا حدث حادث واستطاع بعده أن يغط قلمه في الحبر ويتمم مقاله الذي بدأ به فلم يبال بهذا الحادث مهما يكن عظيماً، ومن رأيه أن لا يهتم الانسان بأمر قيمته نسبية، فالناس الذين هم من هذه الفطرة سعداء لأنهم يفتخرون بسكوتهم في آلامهم، كان قوي الطبع ومادام يستطيع أن يعارك ويعلم ويقرع الناس ويقرعونه ويغمزهم ويغمزونه فالحياة في نظره حسنة جميلة».

لست أدري كيف أصف تأثير صورة هذا الرجل في قلبي فإني لا أنظر إلى هذه الصورة الهادئة إلا قلت في نفسي لَمَ لا نعيش هذه العيشة الساكنة، فنحمل أحمال الحياة الثقيلة والابتسامات على الثغور كأنها أزاهير الربيع!

لَمَ ننظر إلى الأشياء من وجهها السيء ونغفل عن النظر إليها من وجهها الوضاح!

فإذا كان كل أمر نسبياً في هذا العالم فلم تضطرب هذا الاضطراب ونقلق هذا القلق، أفنريد أن تكون العامة أعقل منا بقولها «صَغِّرْها تصغر، كبرّها تكبر»!

وإذا جردنا الإنسان من بعض عوامل فيزيولوجية تفعل أفاعيلها فيه، فينشأ عنها قسراً ما ينشأ من لذة وألم فلا نجد الحياة إلا سلسلة قيود تقيد بها البشر، وأوهام جالوا فيها كل مجال، فلا خير ولا شر ولا حسن ولا قبيح في الحقيقة، إن هي إلا أسماء سميناها نحن وآباؤنا من قبل، اصطلح البشر اصطلاحاً على أن يكون هذا الأمر حسناً وذاك قبيحاً، وتعودوا أن يروا حسناً وذاك شراً، فقوي هذا المصطلح واشتدت هذه العادة على تراخي الأعقاب، ولو اصطلحوا على خلاف ما هم مصطلحون عليه لكان القبيح حسناً، والشَّرُّ خيراً أفلا ترى أن الأمور نسبية في هذه الدنيا فما يسرك قد لا يسر غيرك! وما يسوءك قد لا يسوء سواك! هذا يجد السرور في إقامة الحجة وإدحاض الشبهة، وهذا يجده في إدراك الحقيقة واستنباط الدفينة، وفلان يراه في الأمن والعافية.

سل الحسن بن سهل عن السرور فيقول لك:

توقيع جائز وأمر نافذ، وسل أبا مسلم صاحب الدعوة فيقول: ركوب الهمالجة وقتل الجبابرة؛ واللذة عنده إقبال الزمان وعز السلطان، وسل أمرأ القيس وأعشى بكر وطرفة عن السرور فيقول: لك الأول: بيضاء رعبوبة بالطيب مشبوبة باللحم مكبوبة، ويقول: لك الثاني: صهباء صافية، تمزجها ساقية من صوب غادية ؛ ويقول لك الثالث: مطعم هني ومشرب روي وملبس دفيء ومركب وطيء.

ولو قلت ليزيد بن مزيد ما السرور؟ لقال لك: قبلة على غفلة... ولو سألت حرقة بنت النعمان عن لذة أبيها لأجابتك: شرب الجريال

ومحادثة الرجال، وما أزهد الاعرابي الذي قيل له: ما السرور فقال: لبس البالي في الصيف، والجديد في الشتاء، وما أهنأ الاعرابي الذي قيل له ما النعيم فقال: الماء الحار في الشتاء والبارد في الصيف، وقد أدرك هذا الأمر شيخ أدبائنا وأعني به الجاحظ فوضع كتابه (المحاسن والأضداد)... وقد يجوز أن يكون وضعه على سبيل التفنن في الأدب وقد يجوز أنه عمله لتقرير حفيفة فلسفية فصور لك طبقة من الناس يميلون إلى طائفة من الأمور صور لك طبقة غيرهم يسترسلون إلى أضداد هذه الأمور، فكأنه يريد أن يقول لك: «لا حقيقة مطلقة في الدنيا»، فإذا كان مقصده التفنن في الأدب و لم تخطر بباله الفلسفة، فقد تم له مقصده، وإن كانت غايته فلسفية فقد أدرك الغاية، فأنت تجد مما تقدم أن الناس متباينون في فهم اللذة والسرور مما يدلك على أن الأمور نسبية، فلا حقيقة مطلقة في حياتك،وما دام الأمر كذلك فَلِمَ تغلب علينا الأوهام فتذهب بنا في مضض العيش كل مذهب!

فالإنسان إذا شاء أن تكون حياته حسنة جميلة كان له ما شاء، وإذا أراد أن تكون عيشته سيئة قبيحة كان له ما أراد، على أنه لو كان كل شيء جميلاً في هذا العالم لما كان للجمال رونق في العيون، ولو كان كل شيء صالحاً في هذه الدنيا لما كان للصلاح شأن في النفوس، فلولا سواد الليل لما راعك بياض الصبح، ولولا تجهم الشتاء لما راقتك بشاشة الربيع، فالجمال والقبح متلازمان في العالم، فإنك لا ترى جمالاً إلا رأيت إلى جنبه قبحاً، وإنك لا تجد صلاحاً إلا وقع نظرك على فساد، ولا ينبغي أن يكون كل شيء حسناً في العين، فإذا كان كل شيء حسناً ملت الحسنَ عينك، وسئم الجمالَ نظرك، وأظن أن تحول الأحوال في الحياة هو الذي يجعل الحياة جميلة، فالتنقل من ألم إلى لذة ومن لذة إلى ألم يخفف عليك شؤون الحياة، وبقدر ما يكون الألم شديداً تكون اللذة بعده عظيمة.

حاول أن لا تجد في حياتك إلا اللذة ثم انظر كيف يكون أمرك بعد ذلك، إنك تجد الملل يأخذ منك مأخذه، وما أظن شيئاً أقبح من اطراد الحياة على نمط واحد وإذا أطردت هذه الحياة على وجه واحد ضعف ميل الإنسان إلى الاستزادة منها، ووهي شعوره وقلَّ جسمه.

لا أدري أين قرأت ولا أدري ممن سمعت أن عمر بن الخطاب سمع عجوزاً تقول:«اللهم بدل ابن الخطاب فقال: أمن عسفه، فقالت العجوز والله ما علمنا عليه من سوء ولكن سئمنا وجهه فأحببنا نرى وجه غيره».

إني لا أذكر هذا الكلام إلا تجلت لي فلسفة هذه العجوز وتصور لي مقدار فهمها للحياة.

حاول أن تأكل كل يوم أطايب الطعام، أو أن تلبس ناعم الملابس أو أن تركب رائع المراكب، فإنك تصل إلى حال لا تستطيع معها أن تذوق لذة لما تأكله، ولا أن تجد نعومة لما تلبسه، ولا أن تشعر بروعة ما تركبه، ولكنك إذا جمعت بين الخشونة والنعومة استطعت أن تعرف للحياة قيمة.

على أنه قد ذهب بعضهم مذاهب بعيدة فقالوا: العلم هو الذي أنشأ قلق الفكر وتعب البال، واسفنجة «فابر» مشهورة في الأدب الفرنسي فقد قال فابر:

«أعطوني اسفنجة لأمحو بها ما رسخ في لوح الذاكرة من العلم والفنون والأفكار والقواعد وما شابه ذلك حتى أنسى كل ما علمت في هذه الحياة وأذهب إلى الحقول فأحرث وأزرع وأغرس، ولعلي بهذا العمل أقرب من الطبيعة، فأعيش العيشة التي ليس فيها شيء من القلق والاضطراب».

وقد أصاب «فابر» فإن العامة أقرب في عيشتها من الطبيعة، فهم بمعزل عن الأوهام والقيود التي تجلب للخاصة عناء الفكر.

فالحياة لزجة إن شئت أن تمدها تمددت وتمططت، وإن شئت أن تضيقها أضاقت فالعاقل منا... من ينظر إليها من وجهها الصحيح فيطرح الأوهام التي تقبح كل شيء في النظر ويعيش عيشة هادئة ساكنة أي عيشة فرنسيسك سارسي فإن الحياة أحقر من أن تكون مشغلة للفكر، متعبة للبال.

جريدة المقتبس ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٢٧

obeikandl.com

obeikandl.com

أحلام

«بعد أن هاب فيليه Villiers [1] أسباب المنايا عن بغد على نحو كثير من الناس رأى أجله يسعى إليه، فلم يضطرب و لم يرهب الوجه الذي كشف له الموت عنه، أفلم يأت على كل واحد منا حين من الدهر يحتاج فيه إلى الموت!

مات فيليه موتاً سهلاً وقد قال: الذين أطبقوا له عينيه إنه كان راضياً من قبل أن يموت بالراحة التي يتمتع بها اليوم، فربما كانت تزدحم في صدره أمان بعيدة، أو ربما كان هذا البرتوني يؤمن بما كان يؤمن به آباؤه، أو كان يتوقع أن ينال جزاء الأمة، وجزاء حبه المستمر للجمال، ومن يدري بشيء من هذا كله، فقد كان في أحاديثه يقول: إنه نصراني وإنه كاثوليكي، ولا تكذب تصانيفُه قولَه هذا.

مات فيليه، فلم يأسف على الحياة، فكان يقول:«إني ذاهب إلى الراحة».

إنه ترك هذا العالم من غير أن يذوق ما يسمونه طيبات الحياة، فقد لصق الفقر بعظامه كما لصقت بها بشرته، و لم يستطع أصدقاؤه المعجبون به كل الاعجاب أن ينزعوا عنه هذا الجلباب الذي ألقته عليه الطبيعة، يقولون إنه أنفق في عنفوان شبابه تراثاً زهيداً، والمحقق أنه من بعد أن بلغ العشرين سنة لم يجد له منضدة أو مدفأة، فقد هام ليلاً في المقاهي ثلاثين

---

[1] Villiers de l,isle - Adam

سنة... حتى إذا طلع الفجر عليه كان يتقلص وينطوي، وكأنه ظل من الأظلال، فقد كانت شقوته أي تلك الشقوة الشنيعة التي تشاهدها في المدن صبته في قالب، وصاغته صيغاً جعلته يشبه شذاذ الآفاق الذين يلبسون الثياب السود، ويضطجعون على مقاعد المتنزهات العامة، كانت نظراته جامدة لا تبرق، وكان ظهره ظهر المساكين الفقراء، على أني أشك اليوم فيما إذا كان ينبغي أن نقول عنه: سعيداً أو تعِس!

ولست أدري هل كان يستوجب الرحمة أو الغبطة، فقد كان يجهل، رقة حاله كل الجهل لقد مات من شقوته، ولكنه لم يشعر بها أبداً.

كان يعيش في حلم دائم، وكان حلمه من ذهب، كان فيليه يعيش بفكره في بساتين فتانة ساحرة، وقصور فخمة، وسراديب مملوءة بكنوز آسية حيث كانت تبرق نظرات لآلئ الملوك والعذارى المقدسة، كان هذا التعس يعيش في نواح سعيدة لم تخطر ببال أحد من السعداء في هذا العالم.

كان يعيش بنظره، فقد كانت عيناه الجامدتان تتأملان في باطنه في مشاهد فتانة، فقد جاوز هذا العالم وكأنه في سِنة ونوم، لا يرى شيئاً مما نراه، ويرى ما لا يجوز لنا أن نراه، لا يحق لنا أن نرثي لحاله، فقد عرف كيف يستخرج من أحلام الحياة دهشة طريفة يدهش بها، فقد نشر المخمل والذهب على مقاعد الملاهي، بين رائحة التبغ والجعة.

كلا ثم كلا لا يحق لنا أن نرثي لحاله.

قد يلوح لي إذا قلنا عنه إنه تعس إن ظله يسعى إلّي ويقرعني أشد التقريع.

هذا شيء من وصف أناتول فرانس للكاتب الفرنسي «فيليه دي ليل ـ دام».

كلا ثم كلا لا ينبغي لنا أن نرثي لحال فيليه،فإذا رثينا لحاله فكأننا لا نفهم معنى الحياة.

ما أهدأ هذه العيشة وما أطيبها!

ولعمري لو تصورت الحياة الشعرية لكانت حياة «فيليه» صورتها، أي شيء أجمل من الاسترسال إلى هذه الأحلام!

أي شيء أجمل من التلذذ بهذه المنى المعسولة!

وإذا كنت في حياة تزدحم فيها الآلام،وتجيش فيها الشجون، فتظن أنك تجد دواء تداوي به هذا الداء أنجع من دواء «فيليه»،كان «فيليه» يعيش بفكره، وأي عيشة أطيب من هذه العيشة، وسواء أقالوا عنه أنه سويداوي أم لم يقولوا، إن هذه السويداء هي التي تخفف على صاحبها آلام الحياة وتهون عليه خطبها الجلل.

كان «فيليه» يعيش بفكره أي أنه كان يملك كل شيء في العالم، وهو لا يملك من هذا الشيء ظله كان يعيش في حلم دائم، وهل الحياة إلا أضغاث أحلام!

وإذا كان مصير ذوي التيجان والموسرين والصعاليك إلى حفرة طولها ذراعان وعرضها ذراع أفتستحق الحياة أن تكون شيئاً غير أضغاث أحلام، وأن امرءاً ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق له في الموت، وأن امرءاً هذه صفته من مبدأ الحياة إلى يومك هذا ومن يومك هذا إلي يوم القيامة لجدير بأن يعيش بفكره ونظره في هذه الدنيا، إنه لجدير بأن يجيل النظر في باطنه فيرى مالا يراه غيره، يرى أحلاماً تزدحم على خاطره فيستبط منها طراز حياة يغبطه به أملك الناس للأمر، سل هؤلاء الذين نسميهم سويداويين عن حياتهم تمر بهم ساعات وهم منقطعون عن العالم متصلون بعالم آخر لا يرون شئاً مما نراه، ويرون أشياء لا نراها فهم على

نحو فيليه نفسه قد ملكوا الجمال وقبضوا على نواصيه، فكأن هذا العالم لا أثر له في نظرهم، ومن الحطة أن يلقوا عليه نظرة من النظرات يسرحون ويمرحون في عالم ملآن بالخيالات اللذيذة والأماني الطيبة، قد حصلوا من الطيبات على ما يحصل عليه أعظم الناس جاها، خلقوا لأنفسهم في حواشي بواطنهم خرافات وأساطير وأحلاماً عاشوا بها زمناً رغداً حتى محوا بهذه الخيالات حقائق العالم الشجية فعاشوا عيشة لا يعيشها أفخم الناس شأناً وأكثرهم مالا...

من كلام معاوية جبار بني أمية:«نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع».

ومن أجدر من معاوية بمثل هذا الكلام!

وما عليك إذا قلت: نحن الحياة إن شئنا أن نحسن حياتنا حسنت وإن شئنا أن نقبحها قبحت، فالأيام على ما قال أناتول فرانس في رواية من أبلغ الروايات إنما هي على حسب ما نريد، فإذا فهمنا معنى هذا الكلام وأدركنا سره هانت علينا الحياة فإن شئنا أن تضحك لنا جنباتها ضحكت وإن شئنا أن تعبس عبست، لو فطنا إلى أن الخطوب مهما عظمت ومهما جلت فلا بد لنا من أن ننساها ولا بد لهامن أن تضمحل في سرعة الحياة، لو فطنا إلى هذا كله لما استعظمنا هولاً من الأهوال، أو خطباً من الخطوب ولرأينا أن الحياة إنما هي كما كان يحياها«فيليه» نفسه خيالات وأحلام، وكيف لا تكون الحياة أضغاث أحلام وصورها مختلفة متباينة!

أنت تبكي على شيء يضحك منه الآخر، وفلان يشتهي أمراً أنت تسأمه، فالشهوات مختلفة، والأماني متفاوتة فكيف لا تكون الحياة في مثل هذه الحال لهواً ولعباً!

وقال زياد: أي الناس أنعم؟ قالوا: معاوية.

قال: فأين ما يلقى من الناس أنعم؟ قالوا: أنت قال فأين ما ألقى من الثغور والخراج؟

قالوا: فمن قال شاب له سداد من عيش وامرأة قد رضيها ورضيته لا يعرفنا ولا نعرفه فإن عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه دينه ودنياه.

فأنت تجد من هذا أن رجلاً مثل معاوية يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام: نحن الزمان، وأن رجلاً مثل زياد داهية العرب الصالح لكل صغيرة وكبيرة الذي كان يقول لوضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من أخذ به، أنت تجد من هذا كله أن حياة يكون فيها رجال مثل هؤلاء الرجال ولم يكونوا فيها أنعم الناس لخليقة أن تكون أضغاث أحلام.

وكيف بعد هذا كله ترثي لحالة فيليه؟ وكيف لا تكون حياته طافحة بالغبطة والحبور؟.

اسمع ما قاله أناتول فرانس في حديقة أبيقور إذْ قال الناس:«الحياة حسنة، وإذا قالوا الحياة سيئة فإنهم يقولون شيئاً لا معنى له، فيجب أن نقول: إن الحياة هي حسنة وسيئة معاً...لأننا لا نتصور فكرة الحسن والقبيح إلا بالحياة وحدها، والحقيقة أن الحياة لذيذة كريهة، فتانة رهيبة، حلوة مرّة،وأنها كل شيء فمثلها كمثل ثوب من شتى الألوان واحد يراها حمراء وواحد يراها زرقاء والاثنان يريانها كما هي طالما أنها حمراء وزرقاء وأنها من الألوان كلها، هذا ما يحملنا على الاتفاق وهذا ما يحملنا على الإصلاح بين الفلاسفة الذين يتناحرون فيما بينهم، ولكننا جبلنا على صورة نريد معها أن نجبر غيرنا على أن يشعر وأن يفكر على نحو شعورنا، وتفكيرنا وأننا لا نسمح لجارنا أن يكون جذلاً إذا كنا محزونين.